

ظاهرة الاستعمار وفق تحليل مالك بن نبي

أ. علي بن فتاشة

ملخص :

نالت ظاهرة الاستعمار اهتماما كبيرا في فكر مالك بن نبي ؛ الذي عالج شروط النهضة ومعوقاتها ، وكان من ضمن هذه المعوقات الاستعمار والقابلية له؛ وقد نال مصطلح "القابلية للاستعمار" الذي ابتكره ابن نبي شهرة واسعة ، واعتبر مفهومه من أدق التحاليل لظاهرة الاستعمار ؛ لذا سنحاول في هذا البحث الوجيز أن نتناول تحليل مالك ابن نبي لهذه الظاهرة ، ونجمع ما تششت حولها من آراء ؛ فسلطنا الضوء على حياة ابن نبي وتأثير الاستعمار في تفكيره ، شارحين عوامل الاستعمار عنده والتي لخصها في عاملين اثنين هما : عامل الاستعمار ، وعامل القابلية للاستعمار ، كما عقدنا مقارنة بينه وبين ابن خلدون الذي أشار في مقدمته لهذه الظاهرة حينما تكلم عن نفسية المغلوب.

تمهيد:

يعتبر الاستعمار من العوامل التي كان لها أثر كبير في بلورة فكر مالك بن نبي النهضوي ؛ كيف لا وقد نشأ في بلد شهدت من ويلات الاستعمار ما لم تشهده أيّ بقعة أخرى في العالم ؛ من قتل وتدمير وتجهيل ، وسلخ للهوية واستغلال للثروات الطبيعية والبشرية، عاش مالك بن نبي كلّ هذا وعانى منه داخل الوطن وخارجه، لمدة فاقت نصف قرن من حياته، كما أنه تذوق طعم الحرية في السنوات الأخيرة من حياته وشاهد مُعوقات البناء والنهضة في المغرب والمشرق، فحمل هموم أمته باحثا عن علاجات لها ، وقد تميّز في

أفكاره عن باقي المصلحين الكبار، سواء على مستوى منهج التحليل أو على مستوى المعالجة واقتراح البدائل، واستطاع أن يصل إلى هذا المقام من خلال نقده للمدارس الإصلاحية السابقة، والاطلاع في المقابل على الفكر الغربي العقلاني منه، وتمسكه برؤية شاملة في عرضه لأزمة الإنسان المسلم باعتبارها أزمة حضارية في جوهرها؛ ففي كل المواضيع التي طرقتها في كتبه أو مقالاته المتفرقة، اعتمد المنهج العلمي القائم على التجربة الشخصية ودقة الملاحظات والتحكم الجيد في أدوات التحليل واستنباط الأفكار بسلاسة ووضوح منطقي تام، وهو إلى ذلك يتمتع بشجاعة أدبية في توجيه النقد الذاتي إلى مواطن الخلل في العالم الثقافي، والسلوك السياسي، وحركات الإصلاح التي أخذت قسطا كبيرا من الملاحظات والنقد، لقد كانت مشكلات الحضارة هي محور تفكير مالك بن نبي وعليها أسس مشروعه التغييري، وبحث مسألة الاستعمار لا كجيش يحمل عتاده ليغزو بلد ما وراء البحر؛ بل كظاهرة سيكولوجية وأيديولوجية إمبريالية في النهاية، تتخطى حدود الدول لتخضع الشعوب النائمة، والفاقة للحصانة تحت هيمنتها وسلطتها، وتوصل إلى وجود ارتباط قوي ووثيق بين الاستعمار وقابلية الشعوب له.

وقد كان لعقيدته الإسلامية وإيمانه بها، ومعاينته للاستعمار عن كثب الأثر البالغ في توجهاته النهضوية المستمدة من تكوينه الإسلامي، وهذا ما يجعلنا نسلط الضوء أولا على حياته لنذكر هذا الأثر.

مالك بن نبي: آلام وآمال⁽¹⁾

ولد مالك بن نبي سنة 1905 م بمدينة قسنطينة شرق الجزائر، وترعرع في أسرة مسلمة محافظة؛ فكان والده موظفا بالقضاء الإسلامي حيث حوّل بحكم وظيفته إلى ولاية "تبسه" حين بدأ مالك بن نبي يتابع دراسته القرآنية والابتدائية بالمدرسة الفرنسية وتخرج سنة 1925 م بعد سنوات الدراسة الأربع

، سافر بعدها مع أحد أصدقائه إلى فرنسا حيث كانت له تجربة فاشلة فعاد مجددا إلى مسقط رأسه، وبعد العودة تبدأ تجارب جديدة في الاهتداء إلى عمل؛ كان أهمها: عمله في محكمة آفلو حيث وصلها في مارس 1927 م، واحتك أثناء هذه الفترة بالفئات البسيطة من الشعب فبدأ عقله يتفتح على حالة بلاده ، وقد استقال من منصبه القضائي فيما بعد سنة 1928 إثر نزاع مع كاتب فرنسي لدى المحكمة المدنية ، أعاد الكرة سنة 1930 م بالسفر لفرنسا ولكن هذه المرة كانت رحلة علمية؛ حيث حاول أولا الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقية ، إلا أنه لم يكن يُسمح في ذلك الوقت للجزائريين أمثاله بمزاولة مثل هذه الدراسات ، فترك هذه الممارسات تأثيرا كبيرا في نفسه، فاضطرّ للتعديل في أهدافه وغاياته ، فالتحق بمدرسة (اللاسلكي) للتخرج كمساعد مهندس، ممّا يجعل موضوعه تقنياً خالصاً، أي بطابعه العلمي الصرف، على العكس من المجال القضائي أو السياسي، انغمس مالك بن نبي في الدراسة وفي الحياة الفكرية، واختار الإقامة في فرنسا وتزوج من فرنسية ثم شرع يؤلف الكتب في قضايا العالم الإسلامي، فأصدر عدة كتب منها: "الظاهرة القرآنية" سنة 1946 م ، ثم شروط النهضة " سنة 1948 م، الذي طرح فيه مفهوم القابلية للاستعمار ، ثم "وجهة العالم الإسلامي" 1954 م ، انتقل إلى القاهرة بعد إعلان الثورة المسلحة في الجزائر سنة 1954 م وهناك حظي باحترام كبير، فكتب "فكرة الإفريقية الآسيوية" سنة 1956 ، وتوالت أعماله الجادة، وبعد استقلال الجزائر عاد إلى أرض الوطن ، عين مالك سنة 1964 كمدير عام للتعليم العالي، فقام بمهمته ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، مع مواصلة رسالته التي اکتتبها على نفسه سواء عن طريق المحاضرات أو التأليف ، فصدر له آفاق جزائرية وكذلك الجزء الأول من مذكراته .

من خلال ما نقلناه من سيرة مالك بن نبي ندرك أنّ ما كتبه الرجل كان نتاج تجارب عاشها مع المجتمع الجزائري في الداخل والخارج ، قبل الاستقلال

وبعده ، ولأن العظماء يحملون هموم الأمة فكانت كتاباته منصبة على مشكلاتها في محاولة لتوصيفها ليظهر له العلاج فيما بعد لهذه المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربوية، المتولدة نتيجة لعيوب في نفسياتنا مكنت الرجل الأوربي من استغلالنا باسم الإعمار.

مفهوم الاستعمار لدى مالك بن نبي:

يرى ابن نبي أنه إذا أردنا أن نفهم الاستعمار الحديث يجب أن نبحث عنه في أعماق التاريخ ، ونقوم بدراسته ليسهل علينا التعرف عليه ، وإذا فعلنا هذا سنجد أصول الاستعمار الأوربي الغاشم تعود إلى روما الاستعمارية ، مفرقا هنا بين الحكم الإسلامي الذي حكم جنوب وغرب أوربا لضمها للحضارة لا لاستغلالها؛ وقد تخطت المدنية الأوربية الحاضرة الحضارة الإسلامية (التي تحمل رسالة الإنسانية) لتأخذ من الحضارة الرومانية روحها الاستعمارية ، ويستشهد ابن نبي بما يُردّده المعمّرون صباح مساء بأن أعمالهم ترجع إلى عبقرية الرومان.

ويرى من جهة أخرى أن الاستعمار الحديث ليس شرا كلّه ؛ بل في طياته رحمة؛ لأنه هو الذي بعث العالم الإسلامي من نومه العميق ، فكان كالسوط المبعوث من الله على عباده المؤمنين ليوقظهم.

أما فيما يخص أسباب وقوع المستعمر تحت نير الاستعمار ، فهو ينطلق من التجربة الجزائرية الطويلة المريعة مع الاستعمار الفرنسي ، ليخرج بما يُسمّيه "مُعاملين" فعلا فعلتهما في الإنسان المستعمر ؛ وهما:

- المُعامل الاستعماري.

- مُعامل القابلية للاستعمار.

(1) المُعامل الاستعماري:

يقصد بالمعامل الاستعماري⁽²⁾ ما يفرضه المستعمر على حياة الفرد المستعمر من عوامل تعمل على تهديم جوهره ومحو عبقريته ؛ إذ يعمد المستعمر على الانتقاص من قيمة المستعمرين وتحطيم قواهم الكامنة فيهم حيث يبدأ الحط من قيمتهم وينفذ خطته بطرق فنية مدروسة ، فيجد الفرد المستعمر كل الأعمال التي تقوم عليها حياته الاجتماعية لا تنالها يده إلا بشق الأنفس؛ من خلال شبكة دقيقة مسمومة من الأحقاد ، تسلبه كل وسيلة لإقامة حياته ، وتنتشر من حوله الأفكار المحطمة لقيمه ولمصالحه ، فتحيطه بشبكة محكمة ينسجها خبث المستعمر الداهية، إنّه مُعامل جبري وُضع أمام قيمة كلّ فرد ، بقصد التنقيص من قيمته الإيجابية، وهو يؤثر في حياة الفرد في جميع أطوارها؛ يؤثر فيه وهو طفل ، إذ لا يمدّه المجتمع بما يقوي جسده وينمي فكره ، أو يُهيئ له مدرسة أو توجيها ، هذا إذا كان له أب يحنو عليه ، أمّا إذا فقد من نشأته الأب فسيكون الأمر أدهى وأمر، ولسوف يؤول صاغرا إلى ماسح أحذية أو سائل يتخلى عن كلّ عز وكرامة ، فإذا ما كتبت له النجاة من كلّ هذه النكبات ، وهُيئت له الأسباب لأن يجد مقعدا في مدرسة فكم من العراقييل توضع في طريقه ! ... ممتحنون بلا إنصاف ، وحكام بلا شفقة ، ومستخدمون بلا ضمير ... وأخيرا فكم يُلاقى ذلك الفتى المسلم في سبيل الحصول على وظيفة حقيرة ! فالمعامل الاستعماري في الواقع يخدع الضعفاء ، ويخلق في نفوسهم رهبة ووهما ، ويشلهم عن مواجهته بكلّ قوّة ، وإنّ هذا الوهم ليتعدّى إلى المستعمرين أنفسهم فيغريهم بالشعوب الضعيفة ، ويزين لهم استغلالهم وفرض واقعهم عليهم .

فالمعامل الاستعماري هو ذلك الواقع الاستعماري المفروض على المستعمر نفسيا وماديا ، وللتخلص منه يتحتم علينا بدل المطالبة بالحقوق شأن الأحزاب السياسية في البلاد العربية نقوم بواجباتنا أولا كما فعل غاندي في الهند، وأن يشعر الفرد المسلم بما تنطوي عليه شخصيته من قيمة جوهرية

؛ هي تراثه الخاص الذي لا سلطان لأحد عليه ، فكما أنّه ليس للاستعمار أن يتصرّف في الزمان والمكان ، فكذلك لا يستطيع أن يتحكّم في عبقرية الإنسان ، لأنّه مادامت القيم الجوهرية الثلاثة : الإنسان والتراب والزمن ، في يد الشعب ، يشعر بها حينما ينهض من النوم ، فإنّ ذلك الشعب بلا شكّ يُمسك بيده مفتاح الأقدار ، وربّما تصادفه عراقيل أو يعثر مرّات كثيرة ، أو يفقد الأدوات المساعدة في طريقه ، ولكن هيهات أن ينتكس أو يعود إلى الانحطاط إذا ما تصرّف في إمكانياته تصرّف الرشيد⁽³⁾.

(2) مُعامل القابلية للاستعمار⁽⁴⁾:

بعد أن تكلم مالك بن نبي عن "المعامل الاستعماري" ؛ الذي يعتبره "عامل خارجي" ؛ لأنّه يرينا كيف يؤثّر الاستعمار على الفرد من الخارج ؛ ليخلق منه نموذج الكائن المغلوب على أمره ، والذي يُسمّيه المستعمر في لغته "الأهلي" ، لينتقل للحديث عن معامل داخلي ؛ ينبعث من باطن الفرد الذي يقبل على نفسه تلك الصبغة ، والسّير في تلك الحدود الضيّقة التي رسمها الاستعمار ، وحدّد له فيها حركاته وأفكاره وحياته ، ويسمّي هذا المعامل الداخلي بـ "القابلية للاستعمار" ، وربط مالك بن نبي بين الانحطاط وبين القابلية للاستعمار؛ فعّد أنّ هذه القابلية للاستعمار عامل باطني يستجيب للعامل الخارجي ، وأبرز مظاهر هذا العامل الباطني : البطالة ، وانحطاط الأخلاق الذي يؤدّي إلى شيوع الرذيلة ، وتفرّق المجتمع الذي يؤدّي إلى الفشل.

ويشرح لنا مالك بن نبي مفهوم "القابلية للاستعمار" بمجموعة من الأمثلة مستمدّة ممّا عايشه مع مجتمعه الجزائري في المنتصف الأوّل من القرن العشرين ؛ منها :

الاسم الذي أطلقه المستعمر الفرنسي على الجزائريين حين نعتهم بـ "الأهالي" ؛ هذا النعت الذي رمى به إلى التقليل من قيمة المستعمرين ، ووجد

هذا الاسم قبولاً لدى الملقّبين به ، وصار كراية لهم ، حتّى صرنا نسمعه من الطبقة المثقّفة (الأهلية) تردّده في خطبها ومقالاتها ؛ وهذا يعني أنّهم قد أخذوا يقيسون أنفسهم بالمقياس الذي تقيسهم به "إدارة الشؤون الاستعمارية" ، وهكذا كلّ ما يُريده لنا المستعمر نجد في أنفسنا إسراعاً لقبوله ، وتنافساً على تحصيله ؛ فعندما يريد منّا انحطاطاً في الأخلاق يجدنا أسرع إلى محاربة الفضيلة التي يحاول نشرها العلماء في بلادنا ، وهو يريد تشتيت مجتمعتنا وتفريق أفرادها شيعاً وأحزاباً ، فيجدنا متفرّقين بالسياسات الانتخابيّة ... إلخ . وهكذا تكون العلة مزدوجة ؛ فكلما شعرنا بداء المعامل الاستعماري الذي يعترينا من الخارج ، فإنّنا نرى في الوقت نفسه معاملاً باطنياً يستجيب للمعامل الخارجي ويحط من كرامتنا بأيدينا .

ويضرب مثلاً ثانياً – لشرح مفهوم القابلية للاستعمار - وهو حال يهود الجزائر خلال سنوات الحرب العالمية الثانية ؛ التي كانت من أصعب ما مرّ عليهم في العصر الحديث ، حيث كانت "الدوائر الحكومية" تحكمهم بقوانين قاسية ؛ تنغصّ عليهم حياتهم في كلّ ميدان ؛ حيث كان أبناءهم ينبذون من دور التعليم ، وتجارتهم تعرقل بمختلف القوانين ، وكانوا في هذه الحقبة على وشك أن تصيهم العوامل التقليلية ، التي قلّلت من قيمتنا نحن المسلمين ، غير أنّه سرعان ما قام اليهود برّد فعل – لم نقم به نحن – تمثّل في تكوين مدرسة سرية في كلّ بيت من بيوتهم ، يُدرّس فيها أساتذة متطوعون ، فيهم المهندسون والطبيب ... يتطوّعون بلا ثمن ، وقد عمّروا معابدهم أكثر من ذي قبل ، واسترسلت أعمالهم التجارية في نشاطها أحسن وأقوى من الماضي ؛ بفضل تعاضدهم في الضراء ، وهكذا أتيح لليهود أن يجتازوا ساعات الخطر ساعين منتصرين ، رغم ما كانوا يعانونه من معوقات خارجية ، سلّطت على حياتهم في جزئياتها ، فكان نجاحهم منطقياً ؛ لأنّ أنفسهم لم تكن معلولة من باطنها ، ولم يكن من معوّق

داخلي يمسخهم عن التقدّم ، ويحط من قيمة أنفسهم ، وهكذا يُؤدّي القيام بالواجبات إلى كسب الحقوق .

ويستشهد كذلك – لشرح مُرادِه - بقول لأحد المصلحين ؛ وهو:
"أخرجوا المستعمر من أنفسكم يخرج من أرضكم"

فالقضية – عندنا- منوطة أولاً بتخلّصنا ممّا يستغلّه الاستعمار في أنفسنا من استعداد لخدمته ؛ من حيث نشعر أو لا نشعر ، وما دام له سلطة خفية على توجيه الطاقة الاجتماعية عندنا ، وتبديدها وتشتيتها على أيدينا ، فلا رجاء في استقلال ، ولا أمل في حرية ، مهما كانت الأوضاع السياسية ، فالاستعمار درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة ، وأدرك منها موطن الضعف ، فسخرنا لما يريد كصواريخ موجّهة ، إنّه يُسخرنا وأقلامنا لأغراضه ، يسخرنا له بعلمه وجهلنا .

مصادر نظريته حول الاستعمار والقابلية له:

يُعتبر مالك بن نبي من مزدوجي الثقافة؛ العربية الإسلامية والفرنسية الغربية ، ومن القليلين الذين تعمّقوا في تاريخ الحضارات ، وشروط النهضة ، فحمل هموم أمته وبدأ يبحث في عللها في محاولة إيجاد علاج لمعضلة التخلف والانزامية ، وقد في فترة كانت فيها الأمة تتلمس طريق نهضتها من جهة ، ونضالها من أجل استرجاع حريتها من جهة أخرى.

وقد كان لأفكار ابن خلدون وغيره من فلاسفة الغرب أثر واضح في فكره ، والمتصفح لمؤلفاته كثيرا ما يجد تردّد لأسماء كثير منهم ، وبما أنّ نظرية الاستعمار والقابلية له تعدّ من أبرز آراء مالك بن نبي ، سنحاول فيما يلي أن نسلط الضوء على المصادر التي أوحى له بهذه الفكرة المبتكرة .

بين مالك بن نبي وابن خلدون:

ابن خلدون هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي ولد بتونس سنة 732 هجرية (1332م)، قضى أغلب مراحل حياته في تونس والمغرب الأقصى، وكتب الجزء الأول من "المقدمة" بقلعة أولاد سلامة بالجزائر، وعمل بالتدريس في جامع الزيتونة بتونس وفي المغرب بجامعة القرويين في فاس، وبعدها في الجامع الأزهر والمدرسة الظاهرية بمصر، وفي آخر حياته تولى القضاء المالكي بمصر بوصفه فقيها متميزا خاصة أنه سليل المدرسة الزيتونية العريقة، توفي ابن خلدون في مصر عام 808 هـ (1406م) وتم دفنه قرب باب النصر بشمال القاهرة⁽⁵⁾.

وابن خلدون مؤرخ يعتبر مؤسس علم الاجتماع الحديث ترك تراثا ما زال تأثيره ممتدا حتى اليوم، وهو أحد العلماء الذين تفخر بهم الحضارة الإسلامية، فهو مؤسس "علم الاجتماع"، وأول من وضعه على أسسه الحديثة، وقد توصل إلى نظريات باهرة في هذا العلم حول قوانين العمران ونظرية العصبية، وبناء الدولة وأطوار عمارها وسقوطها، وقد سبقت آراؤه ونظرياته ما توصل إليه لاحقا بعدة قرون عدد من مشاهير العلماء كالعالم الفرنسي أوجست كونت.

وإذا قمنا بمقارنة بين ابن خلدون ومالك بن نبي -رحمهما الله- نجد أنّهما عالمان بارزان في فكرنا الإسلامي، وكلاهما درس الوضع الاجتماعي للأمة، وحاولا تشخيصه، واستخلاص السنن والقواعد الحاكمة للسلوك البشري الاجتماعي، ولكن يبدو أنهما جاءا في غير وقتهما فلم تستفد منهما الأمة؛ فابن خلدون جاء في زمن ضعف فيه الفكر الإسلامي، وانتشرت فيه بعض التيارات التي تناصر الخرافة تحت اسم الكرامات، وخوارق العادات، وتعطل الأسباب، فلم يكن لرؤيته المبدعة - التي تدرس السلوك الاجتماعي دراسة موضوعية - نصيب من النظر والدراسة والتطوير؛ ولهذا أهملت "مقدمة" ابن خلدون التي أسس بها لعلم الاجتماع إلى أن اكتشفته أوروبا، ومالك بن نبي لم يكن حظّه

من عناية أبناء عصره به أفضل من حظ ابن خلدون في وقته ، ويرجع الباحث "عبد الله بن ناصر الصبيح"⁽⁶⁾ السبب إلى الظروف السياسية، وخلافه مع سيد قطب في مفهوم الحضارة - ولعل ذلك جعل كثيرين من أبناء الصحوة في المشرق يزهدون فيه إلى وقت قريب .

نضيف إلى ذلك أن كلا العلمين ناقشا ضعف الأمة وهزيمتها، ورؤيتاهما تكمل إحداها الأخرى؛ ابن خلدون تحدّث عن تقليد المغلوب للغالب ، وجعل ذلك قاعدة من قواعد السلوك التي تتبعها أيّ أمة مغلوبة، فهو يقول في مقدمته:

"الفصل الثالث والعشرون في أن المغلوب مولع أبداً بالاعتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده، والسبب في ذلك أن النفس أبداً تعتقد الكمال فيمن غلبها وانقادت إليه إمّا لنظره بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه ، أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي إنّما هو لكمال الغالب، فإذا غالطت بذلك واتّصل لها صار اعتقادا ، فانتحلت جميع مذاهب الغالب ، وتشبّهت به ، وذلك هو الاقتداء ، أو لما تراه -والله أعلم- من أن غلب الغالب ليس بعصبية ولا قوة بأس، وإنما هو بما انتحله من العوائد والمذاهب، تغالطا أيضا بذلك عن الغلب ، وهذا راجع إلى الأوّل ؛ فلذلك ترى المغلوب يتشبه أبداً بالغالب في ملبسه ، ومركبه، وسلاحه في اتّخاذها وأشكالها، بل وفي سائر أحواله"⁽⁷⁾ .

ربما يكون تحليل ابن خلدون ليس محيطاً بالظاهرة من جميع جوانبها ، فليس كل مغلوب مولع أبداً بتقليد الغالب، فهناك من المغلوبين من يقاوم الغالب ويغالبه حتى ينتصر عليه ، ويتحرر من ربقته ، وهذا ينقض أطّراد القاعدة عند ابن خلدون وشموليتها ، ولكن يمكن القول بأطّراد النظرية لو أن باحثاً حرّر مقصد ابن خلدون من الغلبة ؛ فإذا كان مقصده بالغلبة الهزيمة الداخلية فلا شك أن نظريته تطّرد ، وهنا يلتقي مع ما ذكره مالك بن نبي عن

القابلية للاستعمار ؛ والقابلية للاستعمار – كما يراها ابن نبي - حالة خاصة تصيب بعض الشعوب ، فتقبل الاستسلام للخصم ، والوقوع تحت سلطته ، وهي تصيب بعض الشعوب حتى ولو لم تكن استعمرت قط كحال اليمن ، والقابلية للاستعمار هي أسوأ ما يمكن أن ينتج بسبب الصراع بين الأمم والحضارات ، ذلك أن الشعب القابل للاستعمار يعيد تعريف حضارته وأدبه وتاريخه وثقافته وفق رؤية المستعمر ؛ فيستقيح من ذلك ما يستقيحه المستعمر ويستحسن منه ما يستحسنه المستعمر ، وخلال هذه العملية يتخلص من مظاهر القوة في ثقافته ومن كل ما يميّزه عن مستعمره ، وإذا أردنا أن نجتمع بين ابن خلدون ومالك بن نبي لقلنا : إنّ القابلية للاستعمار دفعت الشعب أو فئات من الشعب إلى أن يُقلّد المستعمر ، ولكن ما القابلية للاستعمار ؟ يجيبنا مالك بن نبي بأنها هزيمة داخلية ، ولكن ماذا يعني ذلك ؟ إنها تعني أن طائفة من الناس تشعر أن مصالحها مرهونة بوجود المستعمر وتأيبده ، فهي إذن ترضى أن تسير في ركابه وتعيش في كنفه ، وتدافع عنه وتحسن ما يستحسنه ، وتقبح ما يستقبحه ؛ لتستمتع بالبقاء تحت سيادته ، والمستعمر يبحث عن هذه الفئة من الناس التي لديها القابلية للاستعمار وتعيش هزيمة داخلية ؛ لأنهم رسله الذين يُوطئون الوطن لمقدمه ، ويمهدون البلاد له ، ويدافعون عن سياسته في حرب الأمة ، ولأنهم حراؤه التي يطعن بها في خاصرة الأمة ، فيتهمون قيمها بالتخلف ، ومناهجها التعليمية مثلاً بصناعة الإرهاب ، والمستعمر إذا لم يجدهم سعى لإنشاء ظاهرة القابلية للاستعمار عند من يريد استعمارهم ، مستخدماً عدداً من الوسائل الإعلامية والسياسية والعسكرية ؛ فالقوة المفرطة والاعتداء على كرامة الشعب ، والسخرية من ثقافته وهويته وخياراته القصد منها كسر إرادة الشعب ، وتحطيم خيار المقاومة عنده ، وهزيمته النفسية⁽⁸⁾ .

مناقشة مفهومي الاستعمار والقابلية له:

يُعتبر مالك بن نبي مُبتكر مصطلح "القابلية للاستعمار" ؛ الذي نال شهرة واسعة في السنوات الأخيرة ، واستخدم لدعم توجهات متناقضة ، وهو مصطلح أو مفهوم طرحه مالك بن نبي سنة 1948م ، في كتابه "شروط النهضة" ، وقد كان مراده في جميع الأحوال حث إخوانه في الدين على نفus غبار التقاعس والكسل العقلي والجسدي ، والنهوض لبناء حضارة الإسلام من جديد ؛ حضارة قوية لا يستطيع الاستعمار اختراقها، لأنه كان رجلا غيورا على المسلمين ، ويبدو كأنه يلخص نصف مشكلة الاستعمار ؛ فهو يطلب منا إلقاء الضوء على العيوب الداخلية في بني المجتمعات التي وقعت ضحية الاستعمار ، بعد أن كان التركيز المعتاد لحركات التحرر ينصب أساساً على الدور الذي قامت به القوى الاستعمارية في تأييد التخلف أو حتى صناعته بعد إذ لم يكن موجوداً ، ويرى الباحث "محمد شاويش"⁽⁹⁾ أن ابن نبي يستعمل مفهوم "القابلية للاستعمار" بمعنيين مختلفين:

المعنى الأول: تكون فيه هذه القابلية ناتجة عن الواقعة الاستعمارية أو بتحديد أكثر عن الرضوخ الداخلي لهذه الواقعة وتقبلها ورفض إزالتها.

أما المعنى الثاني: فتكون فيه "القابلية للاستعمار" مجموعة من الصفات العقلية والنفسية وما يناسبها من علاقات اجتماعية تجعل المجتمع لا يستطيع مقاومة الاستعمار وتسهيل للاستعمار مهمته، وهذا المعنى هو الذي اشتهر حقيقة وكثيرا ما يُساء استعماله؛ لأن كثيراً ممن يستخدمونه الآن يريدون منه الدفاع عن الاستعمار بتركيز كل اللوم على مجتمعنا وحجب الأضواء عن القوة الخارجية الهائلة التي تضغط بل تضرب بقبضة حديدية كل حركة نهضوية عند المسلمين .

وإذا كان يرى أن الاستعمار يريد منا البطالة ، والجهل والانحطاط في الأخلاق ، والتفرق والوساخة ، وأن باطننا يستجيب لكل تلك الطلبات ؛ لأننا

نملك "القابلية للاستعمار"، يطرح الدكتور غازي التوبة السؤال التالي: "لكن مالك بن نبي لم يسأل نفسه: ما دور الاستعمار الفرنسي في وجود هذه الظواهر التي رصدها وبخاصة أن كلامه عن "القابلية للاستعمار" جاء بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر بأكثر من مائة سنة؟ الحقيقة أننا لا نجد أية إشارة إلى دور الاستعمار الفرنسي في تطوير مثل هذه الأمراض وتعميقها، مع أن الدراسة الفاحصة لمخططات الاستعمار الفرنسي تبين أنه حاول اقتلاع الشعب الجزائري اقتلاعاً كاملاً من جذوره الحضارية، وعمل على تدمير شخصيته العربية والإسلامية، واجتهد في تغيير هويته التاريخية، وفرض عليه التغريب بشكل قسري وكامل، واعتبر الجزائر فرنسا ما وراء البحار"⁽¹⁰⁾

خاتمة:

في الظروف الحالية التي تعيشها الأمة، جراء التدخل الغربي، وما تعانيه الشعوب الإسلامية من انهزامية متمثلة في عجزها أمام الصهيونية، وبعد مرور مدة ليست بالقصيرة أدرك المسلمون أن كلام مالك بن نبي كان صحيحاً؛ وأن المشكلة الأولى التي تجعل كفتي الميزان مختلفتين هي جرثومة "القابلية للاستعمار"؛ المستوطنة في عقولنا منذ عصور الانحطاط الأولى عند فقدان الأندلس وبداية نهاية الإمبراطورية العثمانية، لقد وقف المفكرون عند أهمية هذه الفكرة وتأكدوا أنه بدون معالجتها كمرض يصيبنا فلن تكون الأمور على ما يرام، لكن للأسف الشديد لم يستطع الكثير من المسلمين في العالم أن يتحرروا من القابلية للاستعمار، رغم أنهم حصلوا على الاستقلال، فهم فعلاً حصلوا على بعض الاستقلال السياسي وبقي الاستعمار الاقتصادي والثقافي والفكري مسيطراً، فمن ينظر إلى دول شمال إفريقيا -مثلاً- يجدها مازالت تابعة بشكل قوي للمستعمر؛ سياسياً واقتصادياً وثقافياً؛ فإقتصادياتها مرهونة بشكل كلي باقتصاد الدول الشمالية المستعمرة وعلى رأسها فرنسا،

والتي زرعت في هذه الدول جيوشا من الأطر الذين تخرجوا في مدارسها وتشبعوا بثقافتها الفرنكفونية ، فأصبحوا المدافعين الأوفياء عليها في بلدانهم الأصلية ، وهم بذلك ممثلون غير رسميون للثقافة والفكر الفرنكفوني في الدول الجنوبية للمتوسط ، أمّا مناهج التعليم في هذه الدول فهي لم تستطع بعد أن تنفك من عقدة التبعية المذلة للمناهج الفرنسية ، ونقلها حرفيا إلى الضفة الجنوبية لتطبيقها رغم اختلاف الظروف الاجتماعية والثقافية بين البلدان ، وهو ما يحتم علينا الفشل دائما ، ونبقى على حالنا بدون شخصية ولا هوية ولا محاولات ذاتية للنهوض من النكبة ، ومنه نقول: ما أحوجنا لتطبيق أفكار مالك بن نبي !

الهوامش:

- (1) للمزيد حول حياته وسيرته ينظر:
وكبيديا الموسوعة الحرة : 15 فيفري 2013 م
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A7%D9%84%D9%83_%D8%A8%D9%86_%D9%86%D8%A8%D9%8A
- (2) ينظر: شروط النهضة ، مالك بن نبي : 145-147.
- (3) شروط النهضة: 150-151.
- (4) ينظر: شروط النهضة: ص 31 و 152-155.
- (5) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الجزء الأول ص 5، تدقيق خليل شحاتة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2001م.
- (6) د. عبد الله بن ناصر الصبيح : كاتب سعودي موقع الإسلام اليوم 15 فيفري 2013 .
<http://islamtoday.net/nawafeth/mobile/zview-40-5533.htm>
- (7) المقدمة تج : عبد السلام الشدادي ج 1 ص 242 .
- (8) د. عبد الله بن ناصر الصبيح : كاتب سعودي ، موقع الإسلام اليوم ، 15 فيفري 2013
<http://islamtoday.net/nawafeth/mobile/zview-40-5533.htm>
- (9) مجلة المجتمع ، عدد 1470.
- (6) عن موقع : الإسلام اليوم . 15 فيفري 2013 .
<http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-40-10633.htm>

مصادر البحث ومراجعته :

كتب:

- (1) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، الجزء الأول ، تدقيق خليل شحاتة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 2001م.
- (2) شروط النهضة ، مالك بن نبي ، ترجمة: عمر مسقاوي و عبد الصابور شاهين، دار الفكر/دمشق.
- (3) المقدمة ، ابن خلدون ، تج : عبد السلام الشدادي ج 1 ، خزانة ابن خلدون، ط1 الدار البيضاء 2005م.

مجلات ومواقع الكترونية:

- (1) مجلة المجتمع ، عدد 1470 . 81 . <http://magmj.com/index.jsp?version=81>
- (2) موقع : الإسلام اليوم . 15 فيفري 2013 .
<http://islamtoday.net/nawafeth/artshow-40-10633.htm>
- (3) ويبيديا الموسوعة الحرة : 15 فيفري 2013م
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D8%A7%D9%84%D9%83_%D8%A8%D9%86_%D9%86%D8%A8%D9%8A